موقف المعتزلة من مرتكب الكبيرة

The position of the Mu'tazila from perpetrator great sin

د.مسالتي عبد المجيد[1]
جامعة محمد بوضياف المسيلة
abdelmadjid.messalti@univ-msila.dz

تاريخ الوصول 2021/08/02 القبول 2022/03/08 النشر على الخط 2022/06/15
Received 02/08/2021 Accepted 08/03/2022 Published online 15/06/2022

ملخص:

حَدَّدْتُ في هذه الورقة البحثية مَفَاهِيم كل من الإِيمَانِ، الكُفْر، الفُسْق والنِفَاق، لأُبَيِّنَ الاختلاف الحَاصِل بَيْن الِفرَقِ الكَلاَمِيَةِ حول السؤال التالي: بِمَ نُسمي مَنْ يرتكب من المؤمنين كبيرة من الكبائر دون الشِرْك، ويموت من غير تَوْبَةٍ؟ وما حُكْمُهُ في الآخِرة؟

وبينت أنّ نظرة الفِرق الاسلامية للإيمان، ترتب عنها اختلاف حول اسم وحُكم مُرتكب الكبيرة، ولكن هذا الاختلاف بين الفِرق لم يقتصِر في الحكم على الأفراد بل تعداه إلى حُكَّام ذلك العصر. فكانت المشكلة الأساسية في بحثي هي ما موقف المعتزلة من هذه الآراء المختلفة للفِرق الإسلامية، وما هي حُجَجُهُم لِتَعْضِيدِ موقفهم من مُرْتَكِبِ الكبيرة؟

الكلمات المفتاحية: المعتزلة، الإيمان، الكُفْرُ، الفُسْقُ والنِفَاقُ.

Abstract:

In this research paper, I defined the concepts of faith, infidelity, immorality and hypocrisy, in order to show the difference between the speech sects around the following question: What do we call a believer who commits major sins without polytheism, and dies without repentance? Moreover, what is his sentence in the hereafter?

Furthermore, I indicated that the Islamic sects' view of faith resulted in a conflict about the name and sentence of the perpetrator of the major sin, but this conflict between the sects was not limited to judging individuals, but extended to the rulers of that era. The main problem in my research was-what is the position of the Mu'tazilites towards these different views of the Islamic sects, and what are their arguments to support their position on the perpetrator of the great sin?

Keywords: Mu'tazilites, faith, infidelity, immorality, hypocrisy.

[1] المؤلف المرسل: **مسالتي عبد المجيد** البريد الالكتروني: **abdelmadjid.messalti@univ-msila.dz**

1. مقدمة:

بما أنّ رحمة الله ﷻ واسعة، أراد أن يجعل الإنسان أهلاً للثواب وليس للعقاب، فمنحه التوبة، لكن مرتكب الكبيرة إن مات دون توبة، استحق الخلود في النار، أما حكمه في الدنيا فهو في منزلة بين الكفر والإيمان، وعلى هذا يدور أصل المعتزلة الرابع، "المنزلة بين المنزلتين"، والذي كان سبب اعتزالهم، وقد ذكر صاحب "مروج الذهب" أنهم سموا معتزلة لأنّ كلمة اعتزال في اصطلاحهم تعني القول بالمنزلة بين المنزلتين[1].

ويعتبر هذا الأصل من الناحية التاريخية أول الأصولً ، والسبب المباشر لظهور فرقة المعتزلة بزعامة "واصل بن عطاء". ويدرس هذا الأصل الرابع عند المدارس الكلامية تحت عنوان: الأسماء والأحكام. إذْ دار الخلاف بين "واصل بن عطاء" و"الحسن البصري"(21هـ،110هـ) حول مرتكب الكبيرة، فاعتبر "البصري" مرتكبها ليس بمؤمن ولا بكافر وإنما هو منافق. لكن "واصل بن عطاء" يعتبر مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا ولا مسلما وليس بكافر ولا منافق بل وهو منزلة بين المنزلتين[2]، ثم كان الخلاف بين المرجئة الذين قالوا إن مرتكب الكبيرة مؤمن، والخوارج الذين اعتبروه كافر[3].

ولذلك كان الاختلاف بين الفرق الكلامية حول السؤال التالي: بم نسمي من يرتكب من المؤمنين كبيرة من الكبائر دون الشرك ويموت من غير توبة؟ وما حكمه في الآخرة؟ ثم ما موقف المعتزلة من هذه المشكلة وكيف استدلوا بالسمع لتبرير مواقفهم في هذا الأصل؟

2.التحليل:

-ضبط مفاهيم (الإيمان، الكفر، الفسق، النفاق)

في أصل اللغة، تستعمل المنزلة بين المنزلتين في شيء بين شيئين ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه. أما من حيث اصطلاح العبارة، فهي عند المتكلمين: العلم بأنّ لصاحب الكبيرة اسم بين اسمين، وحكم بين حكمين[4]. نلاحظ أنّ هذا التعريف الاصطلاحي خاص بالمعتزلة وليس كل المتكلمين كما يزعم القاضي عبد الجبار في تعريفه.

وأنّ صاحب الكبيرة له اسم بين اسمين يعني لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقاً. كما أن له حكم بين حكمين، يعني لا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث[5]، وهذا الحكم هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين[6].

وقبل الدخول في تحليل المشكلة أحرى بنا أن نحدد مجموعة مفاهيم كانت السبب في اختلاف الفرق الإسلامية في هذه المسألة الرابعة وهي المنزلة بين المنزلتين، ومن هذه المفاهيم: الإيمان الذي هو في اللغة التصديق، يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ

---

[1] المسعودي "علي بن الحسين"، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ط1، 1989ج6، ص22.

[2] القاضي عبد الجبار وآخرون، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، «د-ط"، «د-ت"،1979، ص350.

[3] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1965، ص701.

[4] المصدر نفسه، ص137.

[5] Nabhani Koribaa, les philosophes de l,islam, sned-alger, algerie, 1980, p p121-122.

[6] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص ص137-138.

وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[1]، أي بمصدقٍ لنا[2]، ويقال فلان يؤمن بعذاب القبر أي يصدق به.

والإيمان عند أهل الحديث هو التصديق بالقلب، والإقرار بالشهادتين باللسان، والأعمال بالجوارح[3]. والإسلام ظاهر الأمر، والإيمان باطنه، لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[4]. أما الإسلام فيعني فيعني في اللغة: الانقياد والاستسلام ولذلك قال تعالى: ﴿ويُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾[5]، أي قيادهم، ويقال سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد[6].

والكفر يعني التغطية، يقال: كفرت الشيء، أي غطيته، ولذلك يقال: تكفر فلان بالسلام، أي تغطى به. وسمي الليل كافرا لأنه يستر كل شيء ويغطيه. ومنه سمي الكافر بالله كافرا لتغطيته نعم الله بالجحود، وقيل: لأنه يستر بكفره الإيمان[7].

والفسق في اللغة: يعني الخروج، وهو مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، وسمي الفاسق في الدين فاسقا لخروجه عن طاعة الله ﷺ وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[8]، رَبِّهِ﴾[8]، أي أنَّ إبليس خرج عن طاعة ربه[9].

والفسق اسم ذم وهو ضد الإيمان يقع على من فسق بالاعتقاد والجحود فيكون كافرا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[10]، وقد يقع الفسق على من ارتكب المعاصي من الموحدين مع علمه بتحريمها، وهنا اختلفت الفرق الإسلامية بما تسميه، وما حكمه؟

أما المنافق فهو من يدخل الإسلام باللفظ ويخرج منه بالاعتقاد، ولفظ منافق مشتق من النفق وهو السرب في الأرض، والمنافق من ستر كفره وغيبه فشُبِّه بالذي يدخل النفق وهو السرب. وقيل أيضا سمي المنافق بالمنافق لأنه مأخوذ من نافقا اليربوع وهو جحره، فشبه المنافق باليربوع لخروجه من الإيمان عن الوجه الذي يدخل فيه.

والاشتقاق الآخر للفظ منافق هو أنه سمي بذلك لإظهاره غير ما يضمر تشبيها باليربوع الذي إذا رابه ريب رفع التراب الذي على جحره برأسه، فظاهر جحره تراب كالأرض وباطنه حفر، كذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر[11].

---

[1] سورة يوسف، الآية17.

[2] ابن منظور "محمد بن مكرم"، لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (د-ت)، ج1، ص141.

[3] أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج1، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط02، 1969، ج1، ص347.

[4] سورة الحجرات، الآية14.

[5] سورة النساء، الآية91.

[6] ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص2008.

[7] ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص3867.

[8] سورة الكهف، الآية50.

[9] ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص3413.

[10] سورة السجدة، الآية20.

[11] ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص4508.

-نظرة الفرق الاسلامية للإيمان، وما ترتب عنه من اختلاف حول اسم وحكم مرتكب الكبيرة

لكن هذه التعاريف اللغوية القاموسية لا تلقى نفس الإجماع عند الفرق الإسلامية في المعنى الاصطلاحي، إذْ أن الإيمان عند المرجئة ينحصر في الجانب العلمي فقط دون العملي[1] خاصة لدى "اليونسية"[2]، يعني أنها تخرج العمل عن الإيمان، وتجعل من ارتكب المعاصي مؤمنا كامل الإيمان.

فأداء الفروض والطاعات بالنسبة للمرجئة ليس من الإيمان، ومنه لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. فالمؤمن عندهم لا يدخل الجنة بعمله وطاعته، بل بإخلاصه ومحبته[3]. وكأن المؤمن عندهم كما يبدو يعيش انفصاما في شخصيته، العمل والطاعة في جهة والإخلاص والمحبة لله في جهة أخرى، ونسوا أن شخصية الفرد كلٌ متكاملٌ متفاعل في ديناميكية متجددة، فلا انفصال بين الفكر والإرادة والوجدان والسلوك.

لكن المعتزلة تعتبر صاحب الكبيرة ليس بمؤمنٍ بزوال أحكام المؤمن عنه في كتاب الله، فحكم الله في المؤمن، الولاية، كما يعرفها القاضي عبد الجبار: «والتي يراد بها النصرة، كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾[4]، أي أي لا ناصر لهم، ويراد بها الأولى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[5]، أي الأَولى بكم إنما هو الله ورسوله»[6]، وقد تعني الولاية الولاية المحبة والوعد بالجنة لأنّ الله يريد إثابة عبده والتفضل عليه.

أما مفهوم الإيمان عند الخوارج فيتمثل في العمل بأوامر الله ﷻ من صلاة وصيامٍ، وصدقٍ وعدلٍ وهي لا تتجزأ عن الإيمان لأن هذا الأخير ليس اعتقادا فحسب، فمن آمن أن لا إله إلاَّ الله وأنّ محمداً رسول الله، ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر[7].

ولهذا يعتبر الأزارقة – من الخوارج – أنّ مرتكب الكبيرة كافر كفر ملة، خرج بها عن الإسلام، ومن ثم يكون جزاؤه الخلود في نار جهنم، ودليلهم في ذلك أنّ إبليس عُدَّ كافراً رغم أنه لم يرتكب إلاّ كبيرة واحدة وهي امتناعه عن السجود لآدم عندما أمر من طرف ربه، رغم أنه عارف بوحدانية الله ﷻ[8].

غير أن القاضي عبد الجبار يدحض رأي الخوارج في اعتبارهم أن مرتكب الكبيرة كافر، ذلك أن الشرع جعل اسم الكافر لمن

---

[1] "الشهرستاني "أبو الفتح محمد "، الملل والنحل، تح محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، "د-ط" 2003، ج1، ص112.

[2] فرقة من المرجئة، أصحاب يونس الشمري، أوالسمري، ذكر "الشهرستاني" أنه يونس بن عون النميري، تقول: أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له، والمحبة له بالقلب، والإقرار به أنه واحد ليس كمثله شيء، والإقرار بالأنبياء، والتصديق لهم. (عبد المنعم "الحفني"، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط1، 1993، ص431).

[3] "الشهرستاني"، الملل والنحل، تح محمد عبد القادر الفاضلي، ص114

[4] سورة محمد، الآية11.

[5] سورة المائدة، الآية55.

[6] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص700.

[7] المصدر نفسه، ص97.

[8] المصدر نفسه، ص97.

يستحق العقاب العظيم، ويمنع من المناكحة والموارثة والدفن في مقابر المسلمين، وقد ثبت أنّ صاحب الكبيرة لم يختص بمثل هذه الأحكام المخصوصة[1]، يعني أنه ليس بكافر لزوال أحكام الكافر عنه وهو القتل في الدنيا، وفي الآخرة يقول عنهم ﷻ: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2]، كما أنّ مرتكب الكبيرة ليس بمنافق كما قال "الحسن البصري"، لزوال أحكام المنافق عنه ذلك أن النفاق كفر وكذب كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[3].

وصاحب الكبيرة لم يكفر بالله أو يكذب على رسوله، ولهذا يقول القاضي عبد الجبار: «فإنّ الفاسق لا يستحق الذم والعقاب على الحد الذي يستحقه المنافق، وأيضا فإنّ المنافق يستحق إجراء أحكام الكفرة عليه إذا عُلِمَ نفاقه وليس كذلك صاحب الكبيرة»[4]، فهما يختلفان من حيث الاسم والحكم معا.

ورغم الاختلاف الحاصل بين المعتزلة القائلين أنّ مرتكب الكبيرة فاسق، والخوارج الذين اعتبروه كافرا، إلاّ أنهما اعتبرا صاحب الكبيرة مخلدا في نار جهنم. ولموافقة المعتزلة الخوارج في الحكم على صاحب الكبيرة أطلق عليهم خصومهم "مخانيث" الخوارج[5].

لكن المعتزلة وقفوا موقفاً وسطاً بين تشدد الخوارج وتساهل المرجئة، فمرتكب الكبيرة ليس بكافر كما تقول الخوارج، إذ أنه لا يسمى بأسمائهم، لمخالفته الكافرين في جحدهم، وافترائهم على ربهم، واستحلالهم لما حرم الله ﷻ عليهم، ولا هو مؤمن كما حكمت المرجئة، إذ أنه ليس من المؤمنين في رضى أفعالهم، ومجانبته المؤمنين في أعمالهم وطيبتهم، وهو أيضا ليس بمنافق كما يرى "الحسن البصري"، لاستسرار المنافقين الكفر في قلوبهم، بل هو في منزلة وسطى، إذْ هو فاسق.

غير أنهم يتفقون مع الخوارج على خلود مرتكب الكبيرة في النار إذا مات بغير توبة، لكنهم يختلفون عنهم في أنّ عذابه دون القدر المقرر للكافرين شريطة أن يكون إتيانه للكبيرة عن هوى وشهوة، لأنه يكون كافرا كفرا مبيناً إذا أتى الكبائر عن استحلالٍ لها[6].

ودليل القاضي عبد الجبار على أنّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً، هو أنّه يستحق الذم واللعن والاستخفاف والاهانة، وثبت شرعا أنّ اسم المؤمن يطلق على من يستحق المدح والتعظيم والموالاة، وعليه لا يجوز لمرتكب الكبيرة أن يسمى مؤمنا[7].

أما دليل القاضي عبد الجبار الشرعي على أنّ المؤمن يستحق المدح والتعظيم، عكس مرتكب الكبيرة الذي يستحق الذم واللعن والاستخفاف والاهانة، هو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[8]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

---

[1] المصدر نفسه، ص ص712-713.
[2] سورة الحج، الآية19-22.
[3] سورة المنافقون، الآية1.
[4] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص715.
[5] المغربي "علي عبد الفتاح"، الفرق الكلامية الإسلامية، مدخل ودراسة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط2، 1995، ص262.
[6] محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، دار الشروق، ط2، 1988، ص62.
[7] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص ص701-702.
[8] سورة المؤمنون، الآية1.

تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[2]. وغيرها من الآيات التي يذكر فيها اسم المؤمن ويقرنها بالمدح والتعظيم[3].

والمكلف حسب رأي القاضي عبد الجبار يكون إما مستحقا للثواب، أو مستحقا للعقاب، وبين هذا وذاك مراتب أو درجات، أعلاها المستحق للثواب العظيم، ولا يخلو أن يكون مَلَكاً مقربا، أو نبياً ومصطفى مختاراً، وأدناها المستحق للعقاب العظيم، ولا يخلو من أن يكون كافراً، والكفر أنواع: منه المنافق، والمرتد، واليهودي، والنصراني، والمجوسي[4]، وبين المستحق للثواب العظيم، والعقاب العظيم، مستوى آخر وهو بين المستحق لثواب دون العظيم، ويسمى مؤمنا براً تقياً صالحاً، سواءً كان من الجن أو من الإنس. وبين المستحق للعقاب دون العظيم، ويسمى فاسقا[5]. وهذه المنزلة الأخيرة هي نقطة الخلاف الأساسية بين الفرق وهي السبب المباشر لظهور المعتزلة.

-تجاوز الاختلاف بين الفرق من الحكم على الأفراد إلى الحكام

وهذا الاختلاف لا يعود إلى الإنسان العادي المرتكب للكبيرة المنتقل إلى الدار الآخرة دون أن يتوب، بل أن القضية أثيرت في نهاية القرن الأول الهجري في عهد حكام بني أمية، وفي ظروف سياسية غير عادية، تحولت فيها الأمة الإسلامية من الحكم الشوري المبني على العدل والحرية، ومن الخلافة الراشدة إلى الملك العضود[6]، أو النظام الملكي المطلق الذي لا يخضع لأي سلطة لاهوتية أو ناسوتية، ومن هنا كان السؤال حول مرتكب الكبيرة، وكانت الغاية منه هي إبراز مواقف الفرق من ولاة بني أمية وأمرائهم، ومن المظالم التي كانوا يرتكبونها.

يقول صاحب الملل والنحل حول الخلاف الذي دار بين "الحسن البصري" و"واصل بن عطاء" والذي انتهى باعتزال واصل حلقة "الحسن البصري": «دخل رجل على "الحسن البصري"، فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يردون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان...وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا اعتقاداً؟»[7]، وهنا يبين السائل الاختلاف الصارخ بين الفرقتين، بين فرقة متشددة مع مرتكب الكبيرة وهم الخوارج، إذْ وضعوه في منزلة الكافر، وفرقة متساهلة مع مرتكب الكبيرة لدرجة أنها اعتبرته مؤمنا رغم ارتكابه للكبيرة، لأن الكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان.

وقبل أن يجيب "الحسن البصري" عن السائل، قال "الشهرستاني": تدخل "واصل بن عطاء" وقال: «أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة

---

[1] سورة الأنفال، الآية2.

[2] سورة النور، الآية62.

[3] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص ص702-703.

[4] لم يصنف القاضي عبد الجبار إبليس ضمن المستحقين للعذاب العظيم؟! لأنّ إبليس ممثل الشياطين أوّل من تمرد ضد الله، فنفي من السماء مهزوما، ولم يكف عن تضليل البشري.

Karibaa Nabhani, le bien et le mal dans le Coran, sned, alger, algerie, 1970, p143.

[5] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص ص697-698.

[6] المقريزي، الخطط المقريزية، ج2، تح محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص356.

[7] "الشهرستاني"، الملل والنحل، تح محمد عبد القادر الفاضلي، ص42

مؤمن مطلقا، ولا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل في ناحية من المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزلنا واصل. فسمّوا من ذلك الحين المعتزلة...»[1]، إذن "واصل بن عطاء" وضع مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين الكفر والإيمان، فأعطاه اسما جديدا، كما أعطاه حكما مميزا أيضا.

ويستدل القاضي عبد الجبار على ما ذهب إليه "واصل بن عطاء" بسيرة أمير المؤمنين في أهل البغي، إذْ لم يسمِّهم كفرة، حتى أنه لما سئل عنهم أ كفارٌ هم؟ قال: من الكفر فرُّوا. فإذا كانوا قد فرّوا من الكفر فهل هذا يعني أنهم مسلمون؟ يجيب أمير المؤمنين: لو كانوا مسلمين ما قاتلناهم، كانوا إخواننا بالأمس بغوا علينا. فهو لم يسميهم كفاراً ولا مسلمين، بل سماهم بُغاة. إذن فصاحب الكبيرة فاسق فاجر لإجماع الأمة على تسميته بذلك وبتسمية الله له به في كتابه[2].

مع العلم أنّ القاضي عبد الجبار كما ورد في دليله السابق لا يفرق بين المسلم والمؤمن، وقد قال: «وكما قلنا مؤمن، جعل بالشرع اسما لمن يستحق التعظيم والإجلال، فكذلك قولنا مسلم، جعل بالشرع اسما لمن يستحق المدح والتعظيم، حتى لا فرق بينهما إلاَّ من جهة اللفظ»[3]، فهما على حد قوله يختلفان في المبنى ولكنهما يتفقان في المعنى، ودليله على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[4]، فالله سمى هذه الجمل دينا، ثم بيّن في آية أخرى أنّ الدين والإسلام شيء واحد إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[5]، وقوله تعالى في كون الإسلام هو الإيمان: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[6]، فلو لم يكن كما يقول القاضي عبد الجبار إحداهما هو الآخر لما صح الاستثناء على هذا الوجه[7].

لكن صاحب الإنصاف "الباقلاني" يرى أن كل إيمان إسلام، وليس كل إسلام إيمانا، فالإسلام يعني الانقياد بينما الإيمان يفيد التصديق. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[8]، فقد نفى عنهم الله الإيمان وثبت لهم الإسلام. كما أنّ الرسول ﷺ وجبريل قد فرقا بين الإسلام والإيمان، عندما اعتبر الرسول ﷺ الإيمان هو التصديق بالله وملائكته ورسله، وغيرها، والإسلام هو الشهادة بوحدانية الله وأن محمدا رسوله، والصوم والحج، وغيرها، وهذا ما يثبت أنهما غيرين[9].

– الإيمان عند المعتزلة هو اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان

[1] المرجع نفسه، ص42.
[2] الخياط، الانتصار والرد عن ابن الروندي الملحد، تح نيبرج، الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان، ط2، 1993، ص165.
[3] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص705.
[4] سورة البينة، الآية5.
[5] سورة آل عمران، الآية85.
[6] سورة الذاريات، الآية35-36.
[7] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص ص705-706.
[8] سورة الحجرات، الآية14.
[9] "الباقلاني"، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تح محمد زاهد الكوثري مؤسسة الخانجي، مصر، ط 2، 1963، ص56.

لم يختلف المعتزلة مع غيرهم في معنى الإيمان أهو اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان؟ أم يتعداه إلى العمل بالجوارح؟ وهل يظل الإيمان إيمانا إذا نقص عنصرا من عناصره؟ ومن هنا فإنّ هذه المسألة طرحت مسألة أخرى وهي هل الإيمان ثابت أم متغير؟ وبتعبير أخر هل يزيد وينقص أم يظل هو هو؟ يتصل بوضع الفاسق صاحب الكبيرة، ذو المنزلة الوسطى بين الكافر والمؤمن في الفكر الاعتزالي بالإيمان الذي يزيد عن طريق العمل، لأنّ الإيمان ليس كما قالت المرجئة: تصديق بالقلب، بل هو عندهم عمل بالجوارح كذلك[1].

فالإيمان عندهم هو اعتقاد بالقلب وشهادة وإقرار باللسان وعمل بالأركان، إذْ قال بعض المعتزلة أنّ الإيمان يشمل الفرائض والنوافل معا، أو كل ما أمر به الله، واجتناب كل ما نهى عنه، وقال "النظّام" أن الإيمان هو اجتناب الكبائر وبذلك تغفر الصغائر، غير أنّ "محمد بن عبد الوهاب الجبائي" يرى أنّ الإيمان هو جميع ما افترضه الله ﷻ، غير أنه لا يعتبر النوافل من الإيمان[2]. ومادام العمل الركن الأساسي في الإيمان، فإنّ مرتكب الكبيرة أخل بالشرط الضروري فيه، لذلك لا يعتبر الفاسق مسلما عند جميع المسلمين[3].

كما أنّ الإيمان عبارة عن خصال خيرٍ، إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً، وهو اسم مدح، أما الفاسق، فهو الذي لم يستجمع خصال الخير وإلاّ استحق اسم المدح، فلا يسمى مؤمنا، ولا هو بكافر مطلقا، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه، ولا يمكننا أن ننكرها[4].

يقول الرسول ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»[5]. يعني لا يمكن للمؤمن أن يقوم بسلوك ينهانا الله عنه، كالزنا أو شرب الخمر أو السرقة أو النهب، ومن ثم فإن العبد حين يقوم بها لا يكون في تلك اللحظة مؤمناً كاملاً، أولا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة[6].

لكن أهل السنة يعتبرون الفاسق مؤمنا، لأنّ الإيمان عندهم هو التصديق بالله ﷻ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[7]، أي أنّ سيدنا يعقوب غير مصدق لأبنائه حتى ولو كانوا صادقين. ودليل أهل السنة في ذلك أنّ حكم الفاسق هو نفسه حكم المؤمن، إذْ يسهم له من المغنم، ويصرف إليه سهم المصالح، ويدافع عنه، ويدفن في مقابر المسلمين، ويصلى عليه[8]، وكل هذه الأحكام تسري على المؤمن كذلك.

---

[1] يحي هويدي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1979، ص120.

[2] أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج1، ص ص329-331.

[3] المرجع نفسه، ج1، ص331.

[4] "الشهرستاني"، الملل والنحل، تح محمد عبد القادر الفاضلي، ص42.

[5] رواه البخاري في كتاب الحدود، صحيح البخاري، ج12، ص69، رقم الحديث6425. ورواه النسائي في سننه، حديث رقم: 4525، ج3، ص1005.

[6] لا يعني هذا أنّ المعتزلة تقول بإيمان كامل وآخر ناقص، بل إنها ترى أنّ المؤمن إذا حدث ناقصان في ايمانه فسيخرجه هذا من دائرة الإيمان ليس إلى دائرة الكفر كما تقول الخوارج بل إلى منزلة الفاسق وهي منزلة بين المنزلتين.

[7] سورة يوسف، الآية17.

[8] الجويني «أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله "، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تح محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم عبد الحليم، مكتبة الجانحي، مصر، "د-ط"،1950، ص397.

وإذا كان الإيمان هو التصديق فإنّ هذا الأخير محله القلب، ويكون الإقرار به باللسان، ويتم العمل بالجوارح، وهذا هو المؤمن الحقيقي، أما إذا كذب بقلبه رغم إقراره بالوحدانية بلسانه وعمل الطاعات بجوارحه فإنه مؤمن مجازا، لماذا هو كذلك؟ لأنه ظاهريا مؤمن، والرسول ﷺ يقول: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم»[1]، ويمنع دمه وماله، ولكنه عند الله ليس بمؤمنٍ، فهو منافق لأنه يظهر عكس ما يبطن، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2]، فالله يعلم أنهم كاذبون.

والأخرس رغم أنه لم يصرح بلسانه لكنه مؤمن حقيقي، كما أنّ المصدق بقلبه مؤمن حتى ولو نطق مكرها بالكفر، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾[3]، دلت هذه الآية على أنّ الإصرار على الكفر لا ينفع مع نطق اللسان بالإيمان، كما أنّ إقرار اللسان به لا يضر مع تصديق القلب[4]، خاصة إذا إذا كان العبد مكرها على ذلك.

غير أن المعتزلة ترفض أن يكون الفاسق مؤمنا، ومن هذا المنطلق ترى أنّ الإيمان مرتبط بالتكليف وكلما زاد العبد في تكليفه زاد إيمانه، كمن يملك نصاب الزكاة فإيمانه أكثر ممن لا يملكه، لأنه مكلف أن يزكي هذا النصاب عكس الذي لا يملكه، ومنه فهو ليس مكلفا بزكاته. وأن كل من ضيّع ركن من الأركان الثلاثة للإيمان، وهي: الاعتقاد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح، فقد ضيّع اسم المؤمن، ذلك أنه إذا ضيّع الاعتقاد أو التصديق بالله وكتبه ورسله...فهو منافق، حتى ولو نطق بالشهادة، وقام بالطاعات كالصلاة والزكاة والصوم...، وإذا أخل بالتصديق والشهادة فهو كافر، أما من أقام الشهادة وصدّق بالله ولكنه أخل بالعمل فهو فاسق[5].

غير أنّ حقيقة الإيمان عند الأشاعرة هي التصديق، والدليل على ذلك كما يرى "الباقلاني" قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[6]، أي أنّ مفهوم الإيمان عند الأشاعرة هو نفسه عند أهل السنة، إذْ يستبعدون العمل، ولهذا كان الفاسق عندهم كامل الإيمان، بل هو في منزلة المؤمن فلا توجد منزلة ثالثة بين الكفر والإيمان؟!

كذلك الإيمان عند الأشاعرة يزيد وينقص وفق أمرين: أوّلها إذا كان الإيمان متعلقا بالتصديق القلبي، فإنّه ثابت، لا يزيد ولا ينقص، لأنه متى قبل ذلك كان شكاً، ومتى نقص منه أدنى شيء بطل الإيمان، والدليل على ذلك أنّ المصدق بالله وكتبه ورسله إذا ترك بعض الواجبات كالصلاة أو الصيام أو الزكاة...، لا يوصف بالكفر ودليلهم على ذلك حديث الرسول ﷺ في رواية أبي هريرة

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي –كتاب الزكاة –باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ص 133، قوله ﷺ :«إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» معناه: إني أمرت بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، كما قال ﷺ:«فإذا قالوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وفي الحديث: «هلا شققت عن قلبه».

[2] سورة المنافقون، الآية1.

[3] سورة النحل، الآية106.

[4] "الباقلاني"، الإنصاف، ص53.

[5] أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ج1، المعتزلة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1985، ص165.

[6] سورة يوسف، الآية17.

عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الإيمان»[1]، فلم يصفه الرسول ﷺ بالكافر.

بالمقابل لو فعل العبد جميع الطاعات، وأقر بجميع الواجبات، وصدّق بجميع ما جاء به الرسول ﷺ إلاّ تحريم الخمر أو نكاح الأم، ولم يفعل واحدا منها، وصف عندئذٍ بالكفر، والانسلاخ من الإيمان، وعليه يجوز نقص الإيمان وزيادته من طريق الأقوال والأفعال، أما من طريق التصديق فهو ثابت لا يزيد ولا ينقص. وقد بيّن ﷺ ذلك بقوله: «لا يكمل إيمان العبد حتى يحب لأخيه المسلم الخير»[2] لقد أراد الرسول بذلك الخير ولم يرد التصديق، لأنّ العبد لو استحل الشر لأخيه المسلم لم يكن له إيمان لا زائدا ولا ناقصا[3].

عندما توسط "واصل بن عطاء" بين المرجئة القائلين بتسمية مرتكب الكبيرة مؤمنا، والخوارج القائلين بتسميته كافرا، اتُّهِمَ بأنه متأثر بفكرة الوسط الأخلاقي عند "أرسطو "[4]، أو بقول "أفلاطون"(427ق.م،347ق.م) بمنزلة بين الحسن والقبح[5]. والواقع أنّ هذا الحكم كما يبدو يعبر عن محدودية المتهِمين ل"واصل بن عطاء" من جهتين: من الجهة الأولى، إذا كانت الثقافة أو الحضارة أياً كانت تؤثر وتتأثر، فلماذا نلغي هذه الخاصية عن الثقافة الإسلامية؟ وهل كل ما هو غير إسلامي يكون بالضرورة سلبيا؟ وهل الأخلاق كمفهوم عام وليدة الإسلام فقط؟ ألم يقل الرسول ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[6]؟ ألم يدعونا نَبِيُنَا إلى طلب العلم ولو بالصين وهي دولة لا تدين بالإسلام؟ ومن ثم قد تكون هذه الفكرة – المنازلية – دخيلة على الفكر الإسلامي.

ومن جهة أخرى قد تكون هذه الفكرة داخلة في الفكر الإسلامي وأنّ "واصل بن عطاء" والمعتزلة من بعده ارتكزوا على أصول إسلامية، لأن الدين الإسلامي دين وسطية، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[7].

–مبررات المعتزلة النقلية لتعضيد موقفهم من مرتكب الكبيرة

وقد استند "واصل بن عطاء" إلى القرآن والسنة ليبرر ويدعم موقفه من اسم وحكم مرتكب الكبيرة دون أن يهمل الأدلة العقلية التي تؤكد ذلك. ومن الأدلة النقلية قوله تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون﴾[8]، بيّن الله ﷻ أنّ

---

[1] ذكر الحديث الترميذي معلقا بدون إسناد "15/5". وصحح الحديث السيوطي وكذلك الألباني، انظر الجامع الصغير مع فيض القدير "367/1"، سلسلة الأحاديث الصحيحة "22/2".

[2] صحيح البخاري –كتاب الإيمان –باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص 14، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺوعن حسين المعلم قال حدثنا قتادة عن أنس، عن النبي ﷺقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

[3] "الباقلاني"، الإنصاف، ص54.

[4] الفضيلة عند أرسطو وسط بين رذيلتين فالشجاعة كفضيلة هي وسط بين رذيلتين: الجبن والتهور.

[5] الشيء عند "أفلاطون" إذا لم يكن حسنا فليس من الضروري أن يكون قبيحا، فقد تكون هناك منزلة أخرى بين منزلتي الحسن والقبح، زهدي "جار الله"، المعتزلة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1974، ص55.

[6] أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً. وقال ابن عبد البر: متصل الإسناد من طرق صحاح عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

[7] سورة البقرة، الآية143.

[8] سورة الحجرات، الآية11.

أنّ الفسق اسم من أسماء الذنوب، وإن لم يتب الفاسق عن المعاصي التي قد تكون كبيرة أو صغيرة. والكبيرة نوعان: إحداهما يدخل المؤمن دائرة الكفر كالشرك بالله، واعتقاد وقوع الظلم منه ﷻ، وثانيهما الكبيرة المخلة بأصل من أصول الدين كذلك، كالقتل العمد والزنا، وصاحب هذا النوع من الكبائر لا هو بمؤمن لارتكابه ما ينهى عنه الدين، ولا بكافر لأنه ينطق بالشهادة[1]. أما الصغائر فتغفر لمن اجتنب الكبائر كما يرى "النظّام"[2].

وتورد المعتزلة آيات بيّنات تذم المشركين، وتشير إلى فساد أعمالهم، لذلك اقترن الشرك بالظلم، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾[3]، فالظلم أقبح الشرور، ولهذا يستحق فاعله دوام العذاب وقد أكد ذلك ﷻ بقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[4]. فالعبد اكتسب الظلم بإرادته وعليه أن يتحمل يتحمل جزاء ما اختار. والله ﷻ عندما أهلك أمماً من قبلنا، لم يفعل ذلك لكونهم مشركين فحسب بل لظلمهم وذيوع شرورهم وفواحشهم، ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[5].

كما أورد "الخياط " آيات كريمة توضح أحكام الكفر المنصوص عليها في القرآن على ضربين، فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[6]، فهذا حكم الله على أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة. وقال تعالى أيضا: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[7]، لكن هذا الحكم موجه لمشركي العرب ولكل كافر، ماعدا أهل الكتاب، وهو زائل عن مرتكب الكبيرة أيضا.

أما عن المؤمن، فتورد المعتزلة كذلك آيات توضح حكم الله فيه من الولاية والمحبة والوعد، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[8]، فالآية تدل من جهة على أنّ المؤمنين وليهم الله، والولاية تعني النصرة كما تعني المحبة والوعد بالجنة لأنّ الله يريد إثابة عباده والتفضل عليهم[9]. ومن جهة أخرى تبين الآية أنّ الكافرين مأواهم النار خالدين فيها وأنّ أولياءهم الطاغوت. وقال تعالى أيضا: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[10]، أي أنّ الله ناصرُ المؤمنين بمحمد، المصدِّقين له في نبوّته وفيما جاءهم به من عنده، على من خالفهم من أهل الملل والأديان.

---

[1] عبد الكبير الجوهري، محمد رونق، الفكر الفلسفي، دار العلم، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1976، ص94.
[2] أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج1، ص ص329
[3] سورة النساء، الآية168.
[4] سورة يونس، الآية52.
[5] سورة القصص، الآية59.
[6] سورة التوبة، الآية29.
[7] سورة محمد، الآية4.
[8] سورة البقرة، الآية257.
[9] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص700.
[10] سورة آل عمران، الآية68.

وقال تعالى في حكم المؤمنين أيضا: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، لأن الإيمان يشمل كل هذه الصفات، والسعادة كل السعادة لمن اتصف بها.

لهذا يورد القاضي عبد الجبار الآية: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[2]، ويرى أنّ المراد بها هو أن الجنة التي ذكرها الله أعدت للذين آمنوا به وبرسله، وأدوا الواجبات وتجنبوا المحرمات[3].

فالمؤمن يخاف ربه، ويرجو قبول توبته، وفي هذا يصف الله بعض عباده قائلا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[4]، وتلك هي صفات المؤمنين[5]. كما قال ﷻ في حق من يضع الرجاء في موضعه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[6]، والآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[7]، بهذه الكيفية يكون الرجاء. أما الذي يرجو رحمة ربه وهو مقيم على الكبيرة، فقد وضع الرجاء في غير موضعه، واستهزأ بنفسه، واغتر بربه، إلاّ أن يتوب[8].

والإيمان عند المعتزلة إما كله أو لا يكون، ذلك أنّنا نجد عبدا يؤمن بكتاب الله، ويكفر ببعضه، فلا يعتبر من وجهة نظر المعتزلة مؤمنا، حتى وإن كان قد آمن ببعضه، ويستدل القاضي عبد الجبار على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[9]، فرغم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، لكنهم لم يسموا بما آمنوا، بل سموا بما كفروا به منه لكله كافرين[10].

ومن النصوص الحديثية التي اعتمد عليها المعتزلة لتأكيد خلود مرتكب الكبيرة في النار، قوله ﷺ: «إنّ الله تعالى حرم الجنة على كل جسدٍ غذي بالحرام»[11]، مادام الله قد حرّم الجنة على هذا الجسد، بالتأكيد يخلّد في النار لأنه في الدار الآخرة ليس هناك مكان آخر سوى الجنة أو النار، فإن لم يكن في الأولى كان في الثانية.

ولا يمكن لمتكبرٍ أن يدخل الجنة حتى ولو كان تكبره جد محدود، ولذلك يقول الرسول ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»[12]، ولكن القاضي عبد الجبار يستشهد بعجز الحديث لأنّ ظاهره يؤيد مذهب المعتزلة، لكنه يتجاهل

---

[1] سورة التوبة، الآية112.

[2] سورة الحديد، الآية21.

[3] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص702

[4] سورة الإسراء، الآية57.

[5] القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1988، ص ص149-150.

[6] سورة الأنفال، الآية74.

[7] سورة البقرة، الآية218.

[8] القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، ص150.

[9] سورة البقرة، الآية85.

[10] القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، ص150

[11] قال عنه السيوطي في الجامع الكبير، ورد في مسند عبد بن حميد وأبي يعلى من حديث عبد الله بن مسعود عن أبي بكر، وهو ضعيف.

[12] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج2، ص89.

صدر الحديث: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردلٍ من الإيمان»[1]، لأن ظاهره يتعارض ومذهبهم. وروي عن النبي ﷺ : «أول ثلاثة يدخلون النار، أمير متسلِّط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حقوق الله، وفقيرٌ فاجرٌ»[2].

كما روي عنه ﷺ أنه قال: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، نادى منادي بينهما: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»[3]، كما روي عنه ﷺ: «من انتسب لغير أبيه فالجنة عليه حرام»[4]، وعن "أبي هريرة" رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فقد كفر»[5]، فانتساب المرء إلى غير أبيه طمعا في جاه أو أو مال يعد من الكبائر التي تدخل صاحبها النار خالدا فيها.

ظل القاضي عبد الجبار يسرد أحاديث نبوية يُعضد بها رأي المعتزلة في أنّ مرتكب الكبيرة مخلد في النار، ومنها أيضا، قوله ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، قوم يضربون الناس معهم سياط كأذناب البقر. ونساء كاسيات غانيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت[6] المائلة، لا يدخلون الجنة ولا يجذون ريحها»[7]، كما قال رسول الله ﷺ : «خمسة لا يدخلون الجنة، مشرك، وكافر، وعاق، ومنان، ومدمن خمر»[1].

---

[1] المصدر نفسه، ص89.

[2] مسند أحمد -باقي مسند المكثرين -عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار

رقم الحديث: 9208 حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺعرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار... فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وعفيف متعفف ذو عيال... وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط وذو ثروة من مال لا يعطي حق ماله وفقير فخور».

[3] صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة كهيعص، باب قوله وأنذرهم يوم الحسرة

باب قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾، "سورة مريم، الآية39".

رقم الحدييث: 4453 حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد... حتى قوله يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح... ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾ "سورة مريم، الآية39"، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿ وهم لا يؤمنون﴾ "سورة مريم، الآية39".».

[4] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر.

رقم الحديث: 9563 حدثني عمرو الناقد حدثنا هشيم بن بشير أخبرنا خالد عن أبي عثمان قال لما ادعي زياد لقيت أبا بكرة فقلت له ما هذا الذي صنعتم إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: «سمع أذناي من رسول الله ﷺوهو يقول من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام، فقال أبو بكرة وأنا سمعته من رسول الله ﷺ».

[5] صحيح البخاري، 54/12، رقم الحديث:6768.

[6] الإبل الخرسانية.

[7] صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات

ص3971 باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات. رقم الحديث: 2128 حدثني زهير بن حرب حدثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا ».

وقد ذكر القاضي عبد الجبار في كتابه المختصر في أصول الدين الكثير من الأحاديث رغم أن أغلبها أحاديث آحاد ليبين لخصومه أنّ السنة النبوية طريقهم، وليس كما اتهموا بأنهم يركّزون على القرآن ويهملون أو يخرجون عن السنة والجماعة[2].

رُبَّ معترضٍ من أهل السنة أو الأشاعرة يقول: إنّ في القرآن كما في الحديث نصوص دينية تبيِّن أنّ صاحب الكبيرة لا يخلد في النار، ودليلهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3]، وجواب القاضي عبد الجبار حول هذه المسألة هو أن الله أطمع من فعل فعلا دون الشرك ليغفر له إن تاب، ويذكر القاضي عبد الجبار الآية التالية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4]، ليبين لرسول الله إطماعٌ لجميع المؤمنين والمشركين بغفران الذنوب، وأنّ الآية السابقة كما يرى القاضي عبد الجبار ليست أوضح من هذه الآية فيُطمع للمشركين فيها. ومنه يقول القاضي عبد الجبار: «أنّ الأمة لم تجمع إلاّ من قِبَلِ خبر الله، وكذلك نحن أثبتنا وعيد الله على الفاسقين»[5]، وقد قال الله تعالى في هذا السياق: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[6] والفاسق قد تعدى حدود خالقه وعليه أن يجازى بمقدار ذنوبه، فيعد له عذابا مهينا، ويخلد في الجحيم.

ويؤول القاضي عبد الجبار الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[7]، «أنه يغفر للمجتنبين الكبير الصغير وهو أيضا دون الشرك وإن كان صغيرا، فوقع الاستثناء على ذلك الصغير إذْ أخرج الكبير من أن يكون مغفورا»[8]، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[9]، ويدل على أنه تعالى يعد بمغفرة الصغائر قوله ﷻ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾[10]، إذن "يغفر لمن يشاء" يعني أنه يغفر لمن تاب من الكبائر[11].

وما يؤكد وجهة نظر المعتزلة في الدلالة على حكم الفاسق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ، يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾[12]، وقوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، كما بين تعالى أن النار تحيط بالكفرة، وذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[2] ومادام الفاسق تحيط به النار، فهو كافر[3].

---

[1] عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة منَّان، ولا عاق لوالديه، ولا مدمن خمر" أخرجه أحمد "6843".

[2] القاضي عبد الجبار وآخرون، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، «د–ط"، «د–ت"،1979.
ص ص155–156.

[3] سورة النساء، الآية48، 116.

[4] سورة الزمر، الآية53.

[5] القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، ص151.

[6] سورة النساء، الآية14.

[7] سورة النساء، الآية48، 116.

[8] القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، ص151.

[9] سورة غافر، الآية18.

[10] سورة النساء، الآية31.

[11] القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، ص151

[12] سورة الانفطار، الآية13–16.

3.خاتمة:

ما يمكن الوصول إليه في نهاية حديثي عن الأصل الرابع من أصول المعتزلة هو أنهم كانوا وسطيين في الاسم إذ مرتكب الكبيرة لا هو كافر، ولا مؤمن، بل وسط بينهما، أي فاسق، وفي الحكم كذلك لم يكن الفاسق حكمه حكم المؤمن، ولا حكم الكافر، بل في منزلة بين منزلتين، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإنه يخلد في الجحيم، ولكن عذابه أقل من عذاب الكافر.

وهنا تطرح قضية عدل الله الذي دافعوا عنه ببسالة، ولكن كيف حكموا على مرتكب الكبيرة الذي قام بالطاعات والواجبات بالخلود في النار شأنه شأن الكافر. لقد كانوا وعيديين إلى حد بعيد الأمر الذي قربهم إلى الخوارج، بل لقبوا من طرف خصومهم بمخانيث الخوارج. غير أنّ الأشاعرة يرفضون هذا الاسم ويعتبرونه مؤمنا فاسقا، أو مؤمنا ناقص الإيمان، وفي الآخرة لا يخلد في النار، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفى عنه، وإن شاء عذبه على قدر ذنبه بما يتناسب وجرمه وما يحقق عدله ﷻ.

والملاحظ أنّ هذا الأصل هو الوحيد الذي اعتمد فيه المعتزلة على قدر كبير من الآيات والأحاديث لم أذكرها كلها، مما يؤكد أنّ هذا الأصل يثبت عن طريق السمع ولا مجال للعقل فيه كما كان له ذلك في باقي الأصول.

المصادر والمراجع:

1-المصادر:

القرآن الكريم (برواية ورش)

-الخياط، الانتصار والرد عن ابن الروندي الملحد، تح نيبرج، الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان، ط2، 1993.

- القاضي عبد الجبار وآخرون، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، «د-ط"، «د-ت"، 1979.

-القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب، محمد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1988.

- ــــــــ ، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1965.

-القاضي عبد الجبار وآخرون، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، «د-ط"، «د-ت"،1979.

المراجع:

-ابن منظور "محمد بن مكرم"، لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (د-ت).

-أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج1، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط02، 1969.

-أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ج1، المعتزلة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1985.

-الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تح محمد زاهد الكوثري مؤسسة الخانجي، مصر، ط 2، 1963.

[1] سورة الأعراف، الآية145.

[2] سورة العنكبوت، الآية54.

[3] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمس، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، ص725.

-الجويني «أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله "، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تح محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم عبد الحليم، مكتبة الجانحي، مصر، "د-ط"،1950.
-الشهرستاني أبو الفتح محمد "، الملل والنحل، تح محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، "د-ط" 2003.
-المسعودي "علي بن الحسين"، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ط1، 1989.
-المغربي "علي عبد الفتاح"، الفرق الكلامية الإسلامية، مدخل ودراسة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط2، 1995.
-المقريزي، الخطط المقريزية، ج2، تح محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1998.
-زهدي "جار الله"، المعتزلة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1974.
-عبد الكبير الجوهري، محمد رونق، الفكر الفلسفي، دار العلم، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1976.
-عبد المنعم "الحفني"، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط1، 1993.
-محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، دار الشروق، ط2، 1988.
-يحي هويدي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1979.
-Karibaa Nabhani, le bien et le mal dans le Coran, sned, alger, algerie, 1970.
- Nabhani Koribaa, les philosophes de l,islam, sned-alger, algerie, 1980.